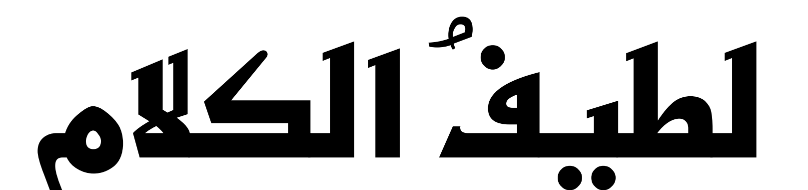


في أوَّل كلِّ عام

إصدار

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم - فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

لطيفُ الكلام في أوَّل كلِّ عام(1)

الحمد لله ذي الفضل والإحسان، خالق المكان ومقدِّر الزمان، من ألزَمَ كلَّ من دونَه مراتب النقصان، وتفرَّد سبحانه بالغنى عن من سواه، فكان حقًّا أهلاً للتوحيد والإعظام، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد أطهر إنسان، وأشرف من حلَّ بمكان وجرى عليه زمان، وعلى آل بيته النجوم الحِسان، وصحبه ذوي العلم والإكرام، وكلِّ من سار على هديه واقتفى بإحسان، وبعد،،،

فإن الله تعالى خلق المكان والزمان، وجعلهما علامة الحدوث والنقصان، وخلق الليل والنهار، وجعل في تعاقبهما مرور الأيام، وانقضاء الأعمار والأزمان، فكانا حقًّا آيتين عظيمتين لمن أحسن النظر والإمعان، ثم خلق سبحانه الشمس والقمر، وجعل لكل منهما منازل وسنن، وفي تعاقب تلك المنازل أنيطت الأحكام، فمن حكمته تعالى أن جعل للشمس أحكامًا وكذا للقمر أحكام، لا ينبغي لمسلم جهلها، ولا لجاهل تغافلها، إذ إنَّهَا سنة الأكوان.

قال المولى سبحانه وتعالى: [وَجَعلنَا اللَّيلَ والنَّهارَ آيتَيْن، فَمَحَوْنَا آيةَ اللَّيلِ وَجَعَلنَا آيةَ النَّهارِ مُبصِرَةً لِتَبتَغُوا فَضلا مِّن ربِّكُم ولِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحسَاب](الإسراء: من الآية 12)، وقال سبحانه: [هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُورًا، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحسَاب](يونس: من الآية 5)، وإنَّ مما أنيط بالشمس أحكام اليوم من صلاة وصيام، فالصوم مؤقت بمدة النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، قال تعالى: [وَكُلُوا واشرَبُوا حَتَّى يتبيَّنَ لكُمُ الخيطُ الأبيضُ مِنَ الخيطِ الأسودِ منَ الفَجر](البقرة: من الآية 187)، وكذا الصلاة تتعلق بطلوع الفجر، وطلوع الشمس، وزوالها، ومصير ظلِّ الشيء مثله، ثم غروبها، وغروب الشفق، قال تعالى: [أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمسِ إلى غَسَقِ اللَّيل، وقُرآنَ الفَجرِ إنَّ قرآنَ الفَجرِ كَانَ مَشهُودًا](الإسراء: الآية 78)، وفي الحديث عن سيدنا ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: p أَمَّنِي جِبرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ عِندَ البَيتِ مَرَّتَين، فَصَلَّى بِيَ الظُّهرَ حِينَ زَالَت الشَّمسُ وَكَانَت قَدْرَ الشِّرَاكِ، وَصَلَّى بِيَ العَصرَ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثلَهُ، وَصَلَّى بِيَ يَعنِي المَغرِبَ حِينَ أَفطَرَ الصَّائِمُ، وَصَلَّى بِيَ العِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، وَصَلَّى بِيَ الفَجرَ حِينَ حَرُمَ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى الصَّائِمِ، فَلَمَّا كَانَ الغَدُ صَلَّى بِيَ الظُّهرَ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثلَهُ، وَصَلَّى بِي العَصرَ حِينَ كَانَ ظِلُّهُ مِثلَيهِ، وَصَلَّى بِيَ المَغرِبَ حِينَ أَفطَرَ الصَّائِمُ، وَصَلَّى بِيَ العِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيلِ، وَصَلَّى بِيَ الفَجرَ فَأَسفَرَ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ: "يَا مُحَمَّدُ هَذَا وَقتُ الأَنبِيَاءِ مِن قَبلِكَ وَالوَقتُ مَا بَينَ هَذَينِ الوَقتَينِ" i (رواه أبو داود وغيره).

ثم من حكمته تعالى أن أناط بالقمر معرفة السنين والشهور، ثم ما يترتب على تلك المعرفة من أحكام البلوغ والتكليف، والصوم والفطر، والحيض والنفاس وغيرها، قال المولى تعالى: [وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُل هِيَ مواقيتُ للنَّاسِ

(1) جملة من لطيف ما قاله الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في (لطائف المعارف)، وما قاله مولانا الإمام الصفاقسي رحمه الله تعالى في (المنقذ من الوحلة) مما يناسب هذا المقام.

والحجّ](البقرة: من الآية 189)، فأخبر أنَّ الأهلة مواقيت للناس عمومًا، وخصَّ الحج لمزيد الاهتمام، وفي الحديث عند الإمام مسلم وغيره عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: p أنَّ سيِّدَنَا ومولانَا رسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ رَمَضَانَ، فَضَرَبَ بِيَدَيهِ فَقَالَ: الشَّهرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا ثُمَّ عَقَدَ إِبهَامَهُ فِي الثَّالِثَةِ - يعني تسعةً وعشرين يومًا-، فَصُومُوا لِرُؤيَتِهِ - أي الهلال- وَأَفطِرُوا لِرُؤيَتِهِ، فَإِن أُغمِيَ عَلَيكُم فَاقدِرُوا لَهُ ثَلاثِينَ i ، وروى الإمام البيهقي في السنن وغيره عن سيدنا عبد الله بن أبي أوفى رضي الله تعالى عنهما قال: قال سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: p إنَّ خِيَارَ عبادِ اللهِ الذِينَ يُراعُونَ الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ والأظِلَّةَ لذكرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ i ، والأدلة في هذا المقام كثيرة جدًّا بكثرة الأحكام التي يحتاجها الناس في مصالح دينهم ودنياهم من صومهم وفطرهم، وحَجِّهم وزكاتهم، ونذورهم وكفَّاراتهم، وعِدَّة نسائهم ومُدد إيلائهم، ومُدد إجازاتهم، وحلول آجال ديونهم وغير ذلك مما هو مؤقَّت بالشهور والسنين.

هذا وإنَّ السنة القمرية كما هو معلوم تتكون من اثني عشر شهرًا قمريًّا، قال تعالى: [إنَّ عِدَّة الشُّهور عندَ اللهِ اثنَا عَشَرَ شَهرًا فِي كِتَابِ اللهِ يومَ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرض](التوبة: من الآية 36)، وهذه الشهور على الترتيب هي: شهر المحرم، شهر صفر، شهر ربيع الأول، شهر ربيع الثاني، شهر جمادى الأولى، شهر جمادى الآخرة، شهر رجب، شهر شعبان، شهر رمضان، شهر شوال، شهر ذي القعدة، وشهر ذي الحجَّة.

ومما هو حريٌّ بالذكر في هذا المقام أن ننبِّه على وجوب معرفة هذه الشهور لما يتعلق بها من أحكام عينية على كل مكلف، وإن ما أدى إلى الواجب فهو واجب، فيجب علينا أن نعلَمَها ونعلِّمها أبناءنا وأحبابنا، إذ عليها مدار طاعاتهم ونجاتهم، وإن من العجيب أن نرى الناس هذه الأيام يجيدون معرفة السنين والشهور الرومية ويتقنون حسابها لما يتعلق بذلك من مصالحهم الدنيوية، وذلك مشروع لهم، إلا أنهم يغفلون في حالهم ذاك عن معرفة السنة القمرية وشهورها، وبذلك يقعون في المحظور لغفلتهم عن أسباب طاعاتهم وبالتالي غفلتهم عن مناطها وهو سرُّ سعادتهم ونجاتهم.

ثم إن المولى سبحانه وتعالى ببالغ رحمته وعظيم حكمته جعل لعباده المؤمنين في كل يوم وليلة لطيفة من وظائف طاعته، منها ما كان فرضًا كالصلوات الخمس، ومنها ما يندب من غير افتراض كنوافل الصلاة والذِّكر وغيرها، وجعل في شهور الأهلة كذلك، فجعل فيها الصيام والزكاة والحج، منها ما هو مفروض كصوم رمضان وحجة الإسلام، ومنها ما يندب كصوم عرفة وعاشوراء وشعبان وشوال والأشهر الحرم وغيرها.

ثم فضَّل سبحانه وتعالى بعض الشهور على بعض فقال: [شَهرُ رَمَضَانَ الذِي أُنزِلَ فيهِ القُرآن](البقرة: من الآية 185)، وقال سبحانه: [الحجُّ أشهرٌ مَعلُومَات](البقرة: من الآية 197)، وقال أيضًا: [مِنهَا أربعَةٌ حُرُمٌ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلا تظلِمُوا فيهِنَّ أنفُسَكُم](التوبة: من الآية 36)، كما جعل سبحانه بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، ففضَّل يوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع، ويوم عرفة على أيام السنة، وليلة القدر على سائر الليالي، وهكذا سنة المفاضلة بين الخلق في كل شيء لحكمة أرادها المولى أن تكون لنا عبرة في كل حال.

وإنه ما من موسم إلا وفيه نفحة لا ينبغي لعاقل أن يغفلها أو يتهاون فيُعرِضَ عنها، ولعلَّ من أهم تلك الوظائف التي ندركها أول العام، ونتعرض إليها في هذا المقام، هي وظيفة التوبة مما مضى، ونصب راية الحق والهدى، والجِدَّ في إصلاح أمرنا قبل الرَّدى، إذ ما زلنا في فسحة الحياة التي قد تنتهي إذا ما العُمر انقضى، فعادة التاجر الحاذق أنه في كلِّ عام يدبِّر حسابه فينظر هل كان ربحٌ أم كان غيرُ ذلك، فإن كان ربحٌ أظهر الجِدَّ لطلب المزيد، وإن لم يكن كذلك شمَّر عن ساعده ساعيًا إلى تغيير حاله، أمَّا إن كان خاسرًا في تجارته، فالأمر عليه صعبٌ حينئذ، لكنَّه مع كل ذلك يعلم أنه ما زال في فسحة العمل قادرًا على العمل والاجتهاد والعطاء، فلا ييأس، بل يرفع همته ليصلح شأنه ويعوِّض ما فاته، هذا هو الحال في أمور الدنيا، فما بالنا نغفل عن أمور آخرتنا ومعادنا، قال تعالى: [بَل تُؤثِرُونَ الحياةَ الدُّنيا، والآخِرَةُ خيرٌ وأبقَى](الأعلى: الآيات 16-17).

إن من أجلِّ ما يفعله المرء في أوَّل عامه أن يزن عمله بميزان الرضا، وينظرَ حالَه هل كان من أهل الرضا، فإن كان رابحًا فليحمد الله تعالى وليشكر، وليس شكرٌ يكون إلا بطلب المزيد، وإن كان غير ذلك تاب وأناب، وأحسن العمل في كلِّ باب، لعل الله تعالى يصلح شأنه ويكرمه بجزيل الثواب.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينوِّر أعمارنا بطاعته، وأن يكرمنا بحسن التوبة والإنابة فنكون أهل محبته، وأن يمن علينا في الدنيا بصحبة الصالحين من أحبَّته، ويختم لنا بالخير فنكون أهلاً لجنته وجميل منَّته ورحمته، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، اللهم آمين يا رب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللهم على سيدنا ومولانا المعظَّم محمَّد وعلى آل بيته وصحبه الطيبين الطاهرين

إعداد:

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم - فلسطين

27 ذو الحجة 1432 هجري الموافق 23 نوفمبر 2011 رومي